مكية الجزء الثلاثون سورة الليل آياتها ٢١

سُورَةُ اللَّيْلِ، مَكِّيَّةٌ، وهذه السورة من وسط المفصل، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ بها في صلاة العشاء، وأمر بذلك معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين صلى بقومه، فعن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلَاةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ الْبَقَرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا الْبَارِحَةَ، فَقَرَأَ الْبَقَرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟**». ثَلَاثًا، «**اقْرَأْ**: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ [الشمس:١] **وَ**: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [الأعلى:١]. **وَنَحْوَهَا**»(١).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أقسم بالليل ﴿إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ يغشى البسيطة بظلامه ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ أقسم بالنهار ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ جلَّ ضوءه البسيطة وأشرق واستنار.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ لها معنيان: الأول: أنه أقسم بنفسه المقدسة، فقال: والذي خلق الذكر والأنثى، الثاني: أنه أقسم بالذكر والأنثى. كما في قراءة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه كان يقرأ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل:٢]، وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى(٢).

وإذا تأملت هذه المقسومات الثلاثة وجدت أن الله عَزَّوَجَلَّ أقسم بالمتقابلات، فأقسم بالليل ويقابله النهار، وأقسم بالنهار ويقابله الليل، وأقسم بالذكر ويقابله الأنثى، وهذا عام في كل ذكر وأنثى من الحيوان.

وهنا فائدة: وهي ما جاء به دارون الملحد، وتابعه كثير من الناس بنظرية النشوء

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٦)، ومسلم (٤٦٥)، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه البخاري (٣٧٤٢)، ومسلم (٨٢٤)، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والتطور، وهي أن الانسان كان مخلوقًا على غير هذا الخلقة، ثم تطور حتى صار قردًا، ثم تطور حتى صار إنسانًا بشريًا، وهذه النظرية كفرية؛ إذ أنها تُخالف الكتاب والسُنة والإجماع، فإن القرآن والسنة والإجماع قائم على أن الله خلق آدم أبا البشر عَلَيْهِ السَّلَامُ من تراب، كما قص الله عَزَّوَجَلَّ علينا قصته في سورة البقرة، والحجر، والإسراء، وص، والكهف، وطه، وفي غير ذلك من السور.

ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مبينًا المقسم عليه: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ أَيْ: إن ما تعملونهُ يا معاشر الناس ﴿لَشَتَّىٰ﴾ متنوع ومتفرق، فمنهم من يعمل بأعمال أهل الصلاح والخير، ومنهم من يعمل بأعمال أهل الشر والضير، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، فكثير من الناس سلك سبيل الإجرام، وقليلهم الذين سلكوا سبيل أهل الإيمان. وإذا نظرت إلى من حولك تجد معنى هذه الآية: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ في أمور الدنيا والدين، فليس كل الناس في أمور الدنيا على معنى واحد، هذا يعمل في التجارة، وهذا في الزراعة، وهذا في الصناعة، وهذا يدرس، وهذا ينام، وهذا يفعل ويفعل. وفي أمور الدين، تجد هذا يقبل على طاعه الله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده، وإفراده بما يجب له، وعلى الصلاة، والصوم، والحج، وهذا عنده نوع تفريط، ويوجد أشد من ذلك، من يكفر بالله عَزَّوَجَلَّ، ورسله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وغير ذلك.

ثم يبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حال كل طائفة، فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ أَيْ: أعطى المال في سبله، وأعطى الأعمال الصالحة التي طلبت منه، وإن كانت الآية بمنطوقها يدخل فيها إعطاء المال أولًا في أوجه الخير، فكذلك هي شاملة لكل عمل صالح، فهو عطاء تتقرب به الى الله عَزَّوَجَلَّ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ ما وجب عليه ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ راقب الله عَزَّوَجَلَّ بفعل المأمور وترك المحظور، فإن من معاني التقوى أن تجعل بينك وبين عقاب الله عَزَّوَجَلَّ وقاية. ومن أعظم أسباب التقوى: الإيمان، والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة:٢-٤]. وهكذا يتقي الله عَزَّوَجَلَّ بترك المحظور، فما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه أجتنبه وابتعد عنه.

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ قيل: صدق بالوعد والجزاء، وقيل بالجنة، وقيل: بلا إله إلا الله، وقيل: غير ذلك، وكلها معاني مُتقاربه، بمعنى أنه صدق وعد الله للمؤمنين، بإثابتهم، ومجازاتهم الجزاء الأوفى؛ ولذلك بادر إلى العمل الصالح، والتزم لا إله إلا الله قولًا، وفعلًا، واعتقادًا.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أَيْ: أن من أعطى واتقى وصدق بالحسنى جزاءه في الدنيا أن ييسره الله عَزَّوَجَلَّ ليسرى العمل، ويرفع عنه الأغلال والآصار التي كانت على من قبلنا، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»(١).

والمعنى الثاني: أنه ييسره لسلوك سبيل اليسرية في قبره، فَيُسأل فيجيب، وعلى الصراط يمر كمر البرق أو الريح أو الخيل أو غير ذلك، ويؤمن من الفزع الأكبر، فييسره الله عَزَّوَجَلَّ لكل خير، والتيسير بيد الله:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَونٌ مِنَ اللهِ لِلفَتَى ❁❁❁ فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيهِ اجتِهَادُهُ

فما تستطيع أن تصلي إلا إذا أعانك الله، أو تتصدق أو تتكلم أو تقوم أو تقعد إلا بتيسير الله عَزَّوَجَلَّ، فإذن الطائع يوفقه الله، والعاصي يخذله الله.

وبعد أن ذكر صنف أهل الإيمان ثَنَّاه بأهل الإجرام فقال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ بخل بما أوجب الله عليه، فبخل بالزكاة المفروضة، وبالنفقات الواجبة، وبخل على نفسه بالطاعات فلم يأتِ بالصلاة والصيام، وقبل ذلك التوحيد وغير ذلك مما أوجب الله عليه، واستغنى عن الله، وإن كان لا يستطيع أن يستغني عن الله في الواقع، لأن ما من مُخلوق إلا وهو فقير إلى الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، ولكنه يتكبر ويتجبر، ويظهر أنه مستغني عن الله، والله هو الغني الحميد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يضره أعراض المعرضين ولا تكبر المتكبرين. ما عساك أيها الإنسان فإذا نظرت إلى من حولك أنت فرد في أسرة، في مجتمع، في دولة، أنت لا تستطيع أن تعيش إلا بمن يعينك على هذه الحياة، تحتاج إلى زوجة، وولد، ودكان، وحمام، وغرفة نوم، وسيارة، وغير ذلك، أنت فقير، فلا تستطيع أن تستغني عن الله، لكن إذا استغنى ورأى نفسه متكبر جازاه الله عَزَّوَجَلَّ على سوء فعله.

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أَيْ: كذب بالتوحيد، أو كذب بالوعد، أو كذب بالجنة، على المعاني السابقة: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ يجعله الله عَزَّوَجَلَّ في عسرٍ في جميع شأنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤]، وبعد مماته ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٤]، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩).

وكذلك تعسر عليه أعماله، فالدين يُسر والبدعة عُسر، والتوحيد يُسر والشرك عُسر، والطاعة يُسر والمعصية عُسر، لكن كثيرًا من الناس لا يفقهون، يتتبعون شهواتهم وأهواهم. فإذن أمور الدين الموافقة لشرع رب العالمين مبنية على اليسرية، ومُخالفة الإسلام، والسنة مبنيًا على العسرية.

ومعنى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أَيْ: يُخذل، ليس معنى ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ يُعينه ويوفقه ويسدد، لا، المشرك لا يوفق ولا يسدد، والعاصي لا يوفق على معصيته ولا يسدد، بينما المؤمن يُعان من الله؛ ولذلك كان من دعاء النبي ﷺ «**رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ**»(١)، «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(٢)، والمجرم يُخذل، ويسلط الله عليه شيطانه وهواه ونفسه، فيقع فيما وقع فيه من الضلال البعيد.

وفي هذه الآيات الإيمان بالقدر، ففي «الصحيحين»(٣) عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ عُلِمَ مَنْزِلُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ فَلِمَ نَعْمَلُ؟ أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: «**لَا، اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [الليل:٥-٦]، إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل:١٠].

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾

ثم يقول تعالى مبينًا ضعف المتكبرين: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أَيْ: أيها الإنسان لا يغني عنك مالك شيئًا إذا هلكت ومت ولقيت ربك، وإنما الذي ينتفع به العبد يوم القيامة العمل الصالح إذا قبله الله عَزَّوَجَلَّ. وقبول العمل مبني على شرطين: الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والثاني: والمتابعة لرسول الله ﷺ. فانظر لنفسك أيها المسلم قبل أن تتردى، ولا تجد من يُعينك في ذلك الأمر الذي وقعت فيه، قال النبي ﷺ: «**يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ**»(٤)، فإن تردى لا يبقى

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٩٧)، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) أخرجه أحمد (٢٢١١٩)، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) البخاري (٤٩٤٦)، ومسلم (٢٦٤٧).
(٤) أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

معه، إلا العمل، إن كان صالحًا فنعم هو، وإن كان غير ذلك فبئس ما هو، نسأل الله السلامة.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ الذي علينا أن نهدي الناس، ونبين لهم طريق الخير من طريق الشر والضير.

والهداية أنواع:

١- **هداية التوفيق**، وهذه خاصة بالله جَلَّ جَلَالُهُ، ويعطيها الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين الموحدين الطائعين.

٢- **وهداية الدلالة والإرشاد**، وهي عامة فإن الله أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ لهداية الناس، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢].

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الليل:١٢] أَيْ: البيان لطرق الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء:١٥].

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ يقول الله عَزَّوَجَلَّ وإن لنا الآخرة، فنجازي المؤمنين بإحسانهم، ونجازي الكافرين بإجرامهم، فيخلد المؤمنون في جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، ويخلد الكافرين في نار أُعدت للكافرين. وهذه الآية فيها معنى عجيب: إذا كانت الآخرة لله والأولى لله، فلماذا تكون على غير مراد الله؟!

فلو دخلت بيتك ووجدت ولدك يعمل على غير ما تُريد، ماذا سيكون خطابك له - أنا أحدثكم عن ما يقع منا جميعًا - خطابنا: هذا بيتي! لماذا تفعل فيه ما لم آذن لك؟! فهنا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ﴾ يجازي المحسنين بأحسن الجزاء؛ والآخرة أكمل، والأولى هي ملك الله، وأرض الله، وخلق الله، فينبغي أن يكون المسلم على ما أراد الله، وإلا كان عاصيًا لله متصرفًا في ملك الله بما لم يأذن الله عَزَّوَجَلَّ به شرعًا؛ لأن الإذن الكوني يختلف عن الإذن الشرعي، الإذن الكوني كل يفعل ما كُتب عليه في الأزل، وأما الأذن الشرعي فهو الطاعة وترك المعصية.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ خوفتكم ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ نارًا ملتهبة مُحرقه، نسأل الله أن يجنبنا وإياكم من حرها وسمومها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ مسكنه النار ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة:٧٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ:٢٤-٢٦]. وهنا يقول: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ خوفتكم، والنبي ﷺ كان يقول «**أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ**،

أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ» حَتَّى لَوْ كَانَ رَجُلٌ كَانَ فِي أَقْصَى السُّوقِ، سَمِعَهُ، وَسَمِعَ أَهْلُ السُّوقِ صَوْتَهُ، وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ(١). وقد أرسل الله جَلَّجَلَالُهُ الرسل بالنذارة والبشارة، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ﴾ أَيْ: بالخير والجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء:١٦٥] أَيْ: من النار والعذاب.

﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ مُحرقة، حرها شديد، وقعرها بعيد، ومن استغاث فيها أُغيث، لكن ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف:٢٩]، ماذا تقول في وصفها أبلغ مما وصفها الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر:٣٦-٣٧]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم:٦].

ثم قال في وصف هذه النار واهلها: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ أَيْ: أنه لا يسكن فيها ويخلد إلا الشقي والمراد به الكافر، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى:١٠-١٣]، وأما المسلم إذا دخلها لذنب اقترفه أو بسبب تفريطه، فإنه يخرج منها بعد ذلك، فقد جاء من حديث أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ**»(٢).

﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ﴾ أَيْ: الأشقى هو الذي كذب بآيات الله الشرعية، وربما وقع منه التكذيب أيضًا بالآيات الكونية، لكن أغلب الناس يُؤْمِن أن الله هو الخالق الرزاق المالك المدبر لهذا العالم ولكنه يكفر ويكذب بآيات الله الشرعية، التي هي القرآن والسنة. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن الكتاب والسنة علمًا وعملًا، وكل متولي له حظه من الآية، فبعضهم يتولى توليًا كليًا

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٩٩)، عَنْ النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم (١٨٥).

كالكافرين، وبعضهم يتولى توليًا جزائيًا كعصاة المسلمين، فينبغي للمسلم أن يحتاط لنفسه.

ثم قال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أَيْ: النار التي تلظى، ينجو منها ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ الذي يفعل المأمور ويترك المحظور. فالتقوى لها حدان: الحد الأول: فعل المأمور، والثاني: ترك المحظور، قال النبي ﷺ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»(١). وإذا اجتمعت مع البر: فالبر الطاعة، والتقوى ترك المعصية.

والأتقى هو: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ ينفق في سبيل الله، ليزكي نفسه، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، فمن معاني الزكاة أنها تزكي المال، تنميه وتصفيه، وكذلك تزكي الأنفس عن البخل، والشح، والطمع، وغير ذلك. وذكر الله المال في هذه الآيات قبل الصلاة مع أن الصلاة أوكد في الفرض؛ لأن المجتمع المسلم في بداية إسلامه كان فقيرًا، يحتاج إلى الإعانة، ويحتاج إلى التكاتف والتعاون، ولأن الكفار كان قد انتشر عندهم الرباء، والبخل وغير ذلك، فأراد الله تمييز المسلمين في سعة الإنفاق والتعاون على البر والتقوى.

وكان عطاؤه لله لا لجزاء، ولهذا قال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ قيل هذه الآيات نزلت في شأن أبي بكر الصديق، وعليها الإجماع، أَيْ: أنه يؤتي ماله يتزكى، يزكي نفسه، وكان إنفاقه قربة لله جَلَّ جَلَالُهُ وليس مجازاة على فضل سابق ممن أنفق عليه. وبيانه: أن بعض الناس يعطيك لأنك أحسنت إليه، ابتسمت له، أعنته، جئته إلى غير ذلك، أما هذا ينفق في سبيل الله وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ له نعمه، وإنما هو تقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولذلك أنفق أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أكثر من أربعين ألف دينار في اعتاق الرقيق، وفي الإنفاق على رسول الله ﷺ، حتى قال النبي ﷺ «إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ، إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ»(٢).

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أَيْ: أن الذي حمله على هذا الإنفاق أنه يرجو الله، ويخلص لله، ويأمل ثواب الله، ويلتزم أمر الله.

وفي الآية إثبات صفة الوجه لله عَزَّوَجَلَّ، وهو من الصفات الذاتية فالله عَزَّوَجَلَّ يقول عن

---

(١) متفق عليه، البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) متفق عليه، البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

نفسه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٧]، ويقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]، ويقول النبي ﷺ: «**حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(١)، ويقول ﷺ: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ**»(٢).

ﷺ وفي الآية بيان عظم الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، فإن الإخلاص ينمي العمل ويجعله مقبولًا، والمخلص قد يُؤجر وهو لا يعمل، قال النبي ﷺ كما في حديث أَبِي كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ**»، - وذكر منهم - «**وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ، يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ. فَهُوَ بِنِيَّتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ**»(٣).

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أَيْ: أن الله سيُعطيه في الآخرة ويرضيه، وهذا وعد لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ففي «الصحيحين»(٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ فِي الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهِ، هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ**» قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا عَلَى أَحَدٍ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**».

مع أن الرافضة يطعنون فيه مخالفين لكتاب الله جَلَّ جَلَالُهُ، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع المسلمين.

والحمد لله رب العالمين.

❀ ❀ ❀

(١) أخرجه مسلم (١٧٩)، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه النسائي (١٢٢٩)، عَنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) أخرجه أحمد (١٨٠٣١)، والترمذي (٢٣٢٥).
(٤) البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧)، واللفظ له.